مجلة الرائد

العدد : ١٩٦ الموافق في رمضان ١٤١٨ هجري ١٩٩٨/١ ميلادي

صوت المرأة المسلمة : زهرة	بقلم : ع. أبو طارق

لقد أصبح الجميع يعرف زهرة ، الفتاة الصومالية ، التي عمرها إحدى عشرة سنة ، بعينيها الكبيرتين الغامقتين ، يسطع منهما ضوء كشعاع شمس الغروب ، تسترها حواجب سوداء كثيفة كبيرة ، اجتمعت لتحرس النور الداخل ، واللمعان الخارج ، فتصوبه نحو الوجنتين لتزيدهما لمعاناً يميلهما إلى الشقرة ، ويبعدها عن السمرة . سمراء غطت شعرها بمنديل من حرير أبيض ، زانته ورود برتقالية تجمعت تحت ذقنها بعد أن ضربت بالخمار على جيبها ، وانشقت فوقه شفتاها الصحراويتان ، فكانت كالدهان .

لبست زهرة هذا المنديل الجديد الجميل النظيف ليتناسق مع ما لبسته من لباس لهذه المناسبة المتميزة ؛ أول يوم ستختلط في صف مع أطفال بشرتهم مختلفة ، ولغتهم سليمة ، ستحكي لهم عن سنوات الهجرة والعناء وعن موت والدها من جراء الورم الذي أصابه خلال المسيرة الطويلة ، بين برديرا[٢] ومقاديشو ، هرباً من الجوع والموت ، سيستمع لها الصديقات الجديدات ويتعاطفن معها .

كانت كلما اقتربت من بنت سألتها عن حالها ، فتجيب بكل سرور : أنا بخير ، فتظهر أسنانها البيضاء معلنة عن ابتسامة كبيرة صادقة .

لقد انتظرت بداية السنة الدراسية الجديدة بكل شوق ، بعد أن قضت سنتين في صف اللغة . لم تكن الصغيرة تعرف ما ينتظرها .

عندما دخلت المعلمة كان أول ما فعلت أن طلبت من زهرة أن تعري رأسها ، قالت البنت : أنا لا أنزع حجابي ، قالت المعلمة : إذن تبقين في بيتك ، أو تعودين إلى بلدك ! فكانت الصدمة التي لم تحسب حسابها . وزاد الطين بلة أنها عندما كانت في طريقها إلى البيت ركبت الحافلة وهي لا تدري أين تذهب . عندما اقتربت من إحدى العجائز ابتعدت عنها وأدارت وجهها . لقد أصبح الكل يتحدث عن هؤلاء الصوماليين الذين ملؤوا البلاد ، واقتسموا مع الناس الأرزاق ، وهذه واحدة منهم . لم تكتف العجوز بذلك ، بل مالت عليها إلى أن دفعتها بعيداً عنها قائلة : ابتعدي عني أيتها السوداء . لم تكمل العجوز كلماتها حتى لقفتها إحدى الفتيات في العشرين ، فانهالت عليها بوابل من التوبيخ جعلها صغيرة ضئيلة تحت أنظار الجميع ، فكفاها ذلك لتنزل من الحافلة في أول محطة .

مجلة المرأة

العدد : ١٩٦ الموافق في رمضان ١٤١٨ هجري ١٩٩٨/١ ميلادي

صوت المرأة المسلمة : زهرة	بقلم : ع. أبو طارق

كان لدفاع الفتاة الدنماركية أثر بليغ على زهرة ، سمعتها تقول : ما ذنب الصغار فيما فعل الكبار ؟ هذه فتاة بريئة ، ستحملك في مستقبل الأيام ، ستؤدي معاشك ، ستملأ علينا الدنيا ، هذه أملنا جميعاً ، لم العنصرية ؟.

هذه أول مرة تسمع فيها زهرة عبارة " يا سوداء " . فتنظر من جديد إلى بشرتها فترى أنها الحقيقة . ولكنها ليست حقيقة جديدة ، لقد كانت دائماً ترى سواد بشرتها دون أن تعير به ، وما العيب في ذلك ؟ إنها تلعب مع صديقاتها دون أن تعيرها إحداهن .

عندما وصلت إلى العمارة تباطأت خطاها كأن ثقل الصدمات أتعبها ، وانتقلت بها الذاكرة من جديد إلى المعلمة والعجوز ، فأصابها دوار فيه ريح عاصفة لها وجهان ؛ وجه المعلمة ، ووجه العجوز ، اشتدت بها الريح ، فرأت جسدها يرتفع إلى أعلى السماء ، ثم تهوي في فضاء شاسع كأنها محمولة على جناح نسر عظيم مستسلم لهذه الرُّخاء (الريح اللينة) ، يتبع ليونتها ويدور مع دورانها ، فرأت من أعلى السماء أنها فوق برديرا بصوامع مساجدها الصغيرة وقد علا الأذان يتردد بين التلال الرملية ، فإذا بالريح تنزل بسرعة نحو وادي الجنان وترميها في الماء ، فإذا بأمواج عظيمة كأمواج البحر تحملها وتتلاطمها يميناً وشمالاً ، لم تكن زهرة حريصة على شيء حرصها على أن تغطي شعرها ، رغم البلة التي أصابتها . وبينما هي تطفو ، إذ رأت العجوز والمعلمة على الضفة تقهقهان . واستمرت الأمواج في سحبها وهي مستسلمة لا تعير أي اهتمام لما يصيبها إلى أن وصلت إلى مدينة الجليب فوجدت الناس قد جاؤوا عن بكرة أبيهم ليستقبلوا موكبها ، وسمعت أصواتهم وهم يرددون : لا تستسلمي يا زهرة ! لا تستسلمي يا زهرة ! وحملها موكب الأمواج إلى أن وصلت إلى الجمام ، فرأت مثل ما رأت في الجليب وبلغتها أصوات الأطفال وهم يرددون القرآن ، وفهمت كلامهم ولكنها لم تستطع أن ترد إلا عندما بلغت مصب النهر .

عندما استيقظت زهرة وجدت نفسها في فراشها ، سألها الطبيب : هل تشعرين بشيء ؟ قالت : لا . فطمأن الطبيب الوالدة وانصرف . وعندما غابت الأم أخذت زهرة سنة من النوم ، فلما رأت والدتها ذلك لفتها في لحاف خفيف ورجعت إلى المطبخ لتكمل اللفائف .

استيقظت زهرة حوالي الساعة السابعة والنصف ، وكانت الشمس لا تزال داخل الغرفة لأن

صوت المرأة المسلمة : زهرة	بقلم : ع. أبو طارق

الفصل فصل صيف ، وفجأة تذكرت تلك الضيافة في مقاديشو ، عند عمها قبل الرحيل ، وكانت تسمع الأذان وتصحب الصبيان إلى المسجد لحفظ القرآن ، أما الآن فإنها تشعر بشيء متوقف في حلقها ، يا ليتها غصت بالطعام ، غصتها شجى عميق ، إنها طول الهجرة وبعد الوطن وقلة الأهل ، وهذا الصمت الذي يحيط بها من كل مكان .

دخلت والدتها بسفرة وضعتها على الأرض ، ثم أحضرت اللفائف وبعض ما لذ لزهرة أكله ، فتقدمت وأكلت مع والدتها ، ثم حكت لها الذي حدث في المدرسة ، وفي الحافلة . كانت زهرة تأكل وتنظر إلى وجه أمها وهي لا تدري ماذا يخفي اليوم التالي ، فطمأنتها ووعدتها أن تتصل بالشيخ عبد الرزاق ، صديق العائلة ، لينصحها بما يجب فعله ، وبالفعل ما انتهى الطعام حتى رفعت السماعة واتصلت به فأشار عليها أن تلتقي بمدير المدرسة .

وفي الغد عندما دخلت الوالدة إلى مكتب المدير كان المترجم جالساً ، فوقف ورد السلام . قال المدير : لقد بلغني خبر المعلمة وقد وبختها على الذي فعلت ، وهي اليوم مريضة ، ولو كانت في المدرسة لأحضرتها لتعتذر إليك .

الهوامش :

(١) زهرة : فتاة صومالية مسلمة تعيش في الدنمارك منذ ثلاث سنوات .

(٢) برديرا والجليب والجمام مدن صومالية تقع جميعها على نهر وادي الجنان ، وهي تكون قاعدة مثلث رأسه مقاديشو .